الدرس (04): وظيفة الأدب

علم الاجتماع الأدبي/ المفهوم والنشأة:

إذا كنا قد أدركنا في تناولنا لموضوع النقد النفسي "أن الإنسان/ الفنّان الأديب سابق نوعا ما على تاريخه وشروطه الاجتماعية، فإنّنا سنتبيّن من خلال بحثنا في موضوع سوسيولوجيا النص/ الأدب، هذا الحقل النقدي الذي يهتم بإقامة علاقات بين المجتمع والعمل الأدبي لأن الكاتب مشروط به، بعكسه، ويعبّر عنه ويسعى إلى تغييره، والمجتمع حاضر في العمل الأدبي حيث نجد أثره ووصفه وهو موجود بعد العمل لوجود سوسيولوجيا للقراءة وللجمهور الذي يقوم، هو أيضا بإيجاد الأدب[1]، على إن العلاقة بين الأدب والمجتمع قديمة تبيّن التعالق القوي بين الإبداع الأدبي واعلم الاجتماع، ولا أدلّ على ذلك من تخصيص فرع من فروع علم الاجتماع، هو "علم الاجتماع الأدبي" –سوسيولوجيا الأدب– مهمته دراسة الظاهرة الأدبية، وينظر إلى الأدب – في دراسته له – على انّه ظاهرة اجتماعية مثله مثل الظواهر الاجتماعية الأخرى، وهو يدرس أركان الأدب الثلاثة: الأديب/ الأثر الأدبي/ القارئ من وجهة نظر اجتماعية. في ضوء ذلك، فان الأثر الأدبي لا يولد في فراغ، فهو عمل مؤلف في زمان ومكان معيّنين ينتجه فرد هام يستجيب لمجتمع لأنّه جزء بارز فيه... ومن هنا كانت وظيفة النقد الاجتماعي توضيح مهمّة الأدب في تشخيص مشكلات المجتمع، أي الاهتمام بالغايات الاجتماعية التي يتضمنها الأثر الأدبي.

وتحليل العلاقات القائمة بين المجتمع والأدب لا تعود إلى القرن العشرين، فتاريخيا، المعروف أن محاولة المفكر الإيطالي "جيامبا تيستا جيكو" (1668– 1744م)، وفي كتابه "مبادئ العلم الجديد" 1725، تعدّ أول محاولة منظمة للربط بين الأدب والواقع الاجتماعي حيث ربط "جيكو" بين الأنواع الأدبية والواقع الاجتماعي حيث ربط الملاحم بالمجتمعات العشائرية، وذكر أنّ الدراما كانت مع ظهور المدينة– الدولة حيث يمكن ان يجتمع جمهور المشاهدين، بينما ميلاد الرواية فكان مع ظهور المطبعة والورق وانتشار التعليم...

[1] – جان إيف تاديه، النقد الأدبي في القرن العشرين، ترجمة: قاسم المقداد، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1993، ص225.

وإذا كان (جيكو) قد ركز على عنصر الزمان لاهتمامه بالمراحل الحضارية، فان "مدام دي ستال" (1766- 1817م) فقد خطت خطوة أخرى في كتابها" الأدب في علاقاته بالمؤسسات الاجتماعية" الصادر سنة 1800 بقولها إنّ كل عمل أدبي يتغلغل في بيئة اجتماعية وجغرافية ما.[1] وطوّر هيوبوليت تين أفكار دي ستال مستفيدا من تقدم الدراسات الاجتماعية وأضاف إلى عنصري الزمن (الذي قال به جيكو) والعامل الجغرافي (الذي قالت به دي ستال) عنصر الجنس أو العرق مكونا بذلك ثالوثه المعروف (البيئة، الجنس، الزمن) فامتزاج هذه العناصر هو الذي يحدد الظاهرة الأدبية.[2] أما الإسهام الماركسي في إبراز العلاقة بين المجتمع والأدب انعكاسا للواقع شاء الأديب أم لم يشأ، ومرتبطا بموقف الأديب من الصراع الذي يسود المجتمع،[3] ومعلوم أن ماركس "قد جاء بأفكار جديدة حول المجتمع وبنائه وتطوره قائلا بالعلاقة الجدلية بين البنية التحتية والبنية الفوقية، وقد نتج عن هذا بروز مفاهيم جديدة عن الأدب تخص قضايا نشأته وطبيعته ووظيفته، كل ذلك في علاقته بالمجتمع. ولما كان وعي الناس هو الذي يحدّد وجودهم في مفهوم الفكر الفلسفي المثالي، فإنّ وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم في ضوء المنظور الجمالي الماركسي.[4]

2/ النقد السوسيولوجي/ القراءة السوسيولوجيوية:

لا بدّ من التنبيه أولا إلى أنّ الحديث عن علم اجتماع الأدب بوصفه اتجاها أو منهجا من المناهج النقدية المعاصرة لا يعني أنه منهج شائع في نظرية الأدب المعاصرة ذلك أنّ "رونيه ويليك" قد تجاهل الاتجاه الاجتماعي في تصنيفه (النقد الماركسي، النقد النفسي التحليلي، النقد اللغوي والأسلوبية، الشكلية العضوية الجديدة التي تعتمد على النظرية البنائية، ثم أخيرا النقد الأسطوري أو الوجودي). إنّ "ويليك" قد تناول هذه الاتجاهات النقدية بشكل عام وركز اهتمامه على الاتجاه الشكلي والوجودي بشكل خاص متجاهلا الاتجاه السوسيولوجي حيث أغفل التأثير الفعلي للماركسية الحديثة على الدراسات الأدبية والذي تزايد بوضوح في

[1] – محمد شبل الكومي، المذاهب النقدية الحديثة، رؤية فلسفية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2004، ص185.

[2] – ينظر: عبد العزيز جسوس، إشكالية الخطاب العلمي في النقد الأدبي العربي المعاصر، المطبعة والوراقة الوطنية الداوديات – مراكش، ط1، 2007، ص66.

[3] – ينظر: إبراهيم خليل، في النقد والنقد الألسني، دار الكندي للنشر والتوزيع، إربد، 2002، ص53- 54.

[4] – بسام قطوس، دليل النظرية النقدية المعاصرة، مناهج وتيارات، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 2004، ص62.

ستينيات القرن الماضي– العشرين. ولعل هذا يدل على أنّ النظرية السوسيولوجية للأدب حديثة نسبيا ومثلت وجهة نظر أو موقفا خاصا تجاه الأدب.

يعتبر علم الاجتماع أحد أهم العلوم الإنسانية التي ارتكز عليها النقد الأدبي بهدف إنتاج معرفة علمية بالظاهرة الأدبية وتجلياتها النصية، وأملا في إضفاء طابع علمي على الدرس النقدي من خلال استلهام مفاهيم هذا العلم ومناهجه. وقد ميّز الباحثون في إطار علاقة النقد الأدبي بعلم الاجتماع بين مرحلتين أساسيتين تعلّقتا بالتطور التاريخي الذي عرفه علم الاجتماع، وبتطوّر التفكير النقدي الذي تبلور في ضوئه، وهما:[1]

– مرحلة المقارنة الاجتماعية للأدب: وهي تلك التي تميّزت بنشأة علم الاجتماع وباستقلاله عن التأملات والتأويلات الفلسفية، ويسعى النقد الأدبي إلى الاستفادة منه في فهم الظاهرة الأدبية باعتبارها مظهرا من مظاهر الحياة الثقافية ذات الأصول الاجتماعية (وتبدأ هذه المرحلة من بداية القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين).

– مرحلة علم اجتماع الأدب: والتي تميّزت بالتطوّر الكبير الذي قطعه علم الاجتماع في مجال العلم، سواء بتدقيق موضوعاته ومناهجه أم بإفادته من اللسانيات التي أمدّته بمفاهيم ومناهج جديدة لدراسة الظواهر الاجتماعية، كما تميّزت بتطور الفكر النقدي الذي تأسس في ضوء علم الاجتماع الذي استلهم المفاهيم والأسس اللسانية الحديثة سعيا منه للاقتراب من طبيعة الآثار الأدبية بوصفها إنتاجا لغويا ترتبط بالحياة الاجتماعية الخاصة أو العامة للأدباء (تبتدئ هذه المرحلة من منتصف القرن العشرين). وقد بلور علم الاجتماع الأدبي اتجاهات نقدية، منها:[2] علم الاجتماع التجريبي للأدب (من خصائصه تهميشه للنص واعتباره الأدبَ إنتاجا اجتماعيا يخضع لشروط كافة المنتوجات الاجتماعية). وعلم الاجتماع الجدلي للأدب (يتميز عن الأول باهتمامه بالنص الأدبي وبقيمه الجمالية)، وعلم الاجتماع النص الأدبي (وهو الاتجاه الذي يمثّله "بيير زيما") ويهتم بمعرفة كيفية تحقق القضايا والمصالح الجماعية في النص الأدبي في المستويات الدلالية والتركيبية والسردية للنص.

[1] – ينظر: عبد العزيز جسوس، المرجع السابق، ص61.

[2] – المرجع نفسه، ص62- 63.

ينظر علم الاجتماع الأدبي إلى الأدب على أنه مؤسسة اجتماعية تتشكل من الأدباء والقراء والناشرين والنقاد والدارسين والصحف والمجلات والروابط والجمعيات الأدبية، وهذا معناه أنّ "علم الاجتماع الأدبي يدرس أشكال النشاط المتبادل بين الأشخاص الذين يتدخلون في عالم الأدب"[1]، وبالتالي فإنّ النقد الاجتماعي يحاول تفسير كيف أن الكتابة الأدبية حدث أو فعل ذو وظيفة اجتماعية، أو كيف أنّ الأدب جزء من النظام الاجتماعي، وهو كبقية الفنون، ظاهرة اجتماعية ذو وظيفة اجتماعية. وقد اتخذت سوسيولوجيا الأدب صورة من صور الدراسة العلمية موضوعها: سوسيولوجيا الكاتب، سوسيولوجيا القارئ، سوسيولوجيا وسائل الإعلام والنشر المقروءة وغير المقروءة، والبحث في قياس مدى تأثير الأدب في جمهوره، أي: أنّ المنهج الاجتماعي النقدي قد ربط الأدب بالجماهير فجعلها هدف خطابه، معلنا –بذلك– من شأن الجماعة، وباحثا عن تأثير الأدب فيها، والأكثر من ذلك، التشديد على القيمة الجمالية للإبداع الأدبي مصدرها الجمهور.[2] إذا، عند دراسة العلاقات بين المجتمع والأدب فإنّ الأمر يتعلق بتأكيد دور احدهما، ومما يترتب عن ذلك الاهتمام بأدوات الإنتاج الأدبي، أي: عمليات التوزيع والتبادل في مجتمع بعينه من قبيل كيفية نشر الكتب، والتكوين الاجتماعي للمؤلفين، والقراء، والعوامل الاجتماعية التي تحدّد الذوق... ويتضح من هذا، أنّ مهمة النقد الاجتماعي تنحصر ما بين علم اجتماع إنتاج الظاهرة الأدبية (شروط إنتاج المكتوب، وعلم التلقي والاستهلاك الذي يتعلق بالنهايات(القراءات والانتشار والتأويلات...)،[3] فالنقد الاجتماعي يستهدف النص ذاته باعتباره المكان الذي يتدخّل فيه.

إذا، لا تولي سوسيولوجيا القراءة/ سوسيولوجيا الأدب أهمية للمؤلف والعمل الأدبي فقط، بل وللجمهور أيضا، وكما يقول إيغلتون: " إنّ العمل الأدبي ناقص دائما لا يكتمل إنتاجه إلا في عملية استهلاكه"[4]، ولذا، نؤكّد أنّ سوسيولوجيا القراءة هي ذلك الجزء من جمالية التلقي الذي يعالج الاستقبال الجماعي للعمل الأدبي، إنّها تدرس العلاقات بين العمل والقارئ لموضوع مستقل دون أن تتجاهل أو تتغافل عمن العناصر الشعرية/ الجمالية

[1] – إنريك أندرسوب إمبرت: مناهج النقد الأدبي، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، دار العالم العربي، القاهرة، ط1، 2010، ص97.

[2] – ينظر: وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث، رؤية إسلامية، دار الفكر، دمشق، ط1، 2007، ص38.

[3] – تأليف: مجموعة من الكتاب، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمة: رضوان ظاظا، (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، ع 221، 1997، ص167.

[4] – نقلا عن: زامل صالح، مناهج النقد الأدبي، دراسة لمكوّنات الفكر النقدي في العراق، من 1980– 2005، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2014، ص65

التي تتمظهر فيه. ولعل هذا ما يقودنا إلى القول بان المكانة التي يحتلها النقد النفسي في كنف التحليل النفسي، هي ذاتها المكانة التي يحتلها النقد السوسيولوجي داخل سوسيولوجيا الأدب حيث لم يعد اعتبار النص انعكاسا، ولا تحققا لمضامين سابقة عليه... إنّ هذا ما يدلّ على أن التحليل السوسيولوجي يعطي الأثر الأدبي "أهمية خاصة، وهذه الأهمية تنبع أساسا من خصوصيته الفنية ومن دلالته الموضوعية التي عن طريقها يتمكن الباحث من تحديد نقطة البدء في دراسته"[1]. وهكذا، فإنّ النقد باعتباره قراءة لازمة يعتمد هذا الرأي النقدي الشّكلاني الذي يستهدف النص كموضوع له الأولوية في الدراسة حتى وإن كانت غايته إعادة المضمون الاجتماعي.

[1] – سمير سعيد حجازي: مناهج النقد الأدبي المعاصر بين النظرية والتطبيق، دار الأفاق العربية، القاهرة، ط1، 2007، ص156.